النيـــل

تأليف اميل لودويغ

ترجمة الأستاذ عادل زعيتر

الآن أنجزت قراءة كتاب ضخم ! إنه كتاب النيل ، وكفى به تعريفا أن نقول : ألفه أميل لودويغ وترجمه عادل زعيتر !

إنه يقع فى (٧٤٥) صفحة ، أنيق الطبع ، صقيل الورق ، شأن ما تطبعه دار المعارف بمصر

هذا الكتاب العظيم ، قضى لودويغ فى تأليفه ست سنوات وقام من أجله بثلاث رحلات ، درس فى أثنائها جميع النيل الأبيض فى أوغندة والسودان والنيل الأزرق فى الحبشة حيث بلغ منابعه ، وفى السودان . ومما يذكر أن المغفور له «الملك فؤاد» قد وضع باخرة تحت تصرف المؤلف تيسيراً لمهمته وعرفانا بأهميتها

ولاح النيل للودويغ كعظماء الرجال فاستنبط من طبيعته تسلسل حوادث حياته، وأبان كيف أن الوليد وهو يتفلت من الغابة البكر ينمو مصارعا ثم تفتر همته ويكاد يفقد ثم يخرج ظافراً ، والنيل فى تمام رجولته يقاتل الإنسان فيقهر ويروض ويوجب سعادة الناس ولكنه قبل ختام جريته — بسبب من المآسى أكثر مما فى شبابه ، فقارئ الكتاب إذن إنما يقرأ وصف حياة، لا كتاب دليل، وإنما يقرأ مغامرات النيل لا مغامرات لودويغ

وأول ما يأخذك فى الكتاب هذا الوصف الذى امتاز به لودويغ وتلك الملاحظة الدقيقة التى أثرت عنه ، فيهرك وصفه للطير وللبعير وللفيل، ويهرك وصفه للتمساح والحوت والنعامة والزرافة والبقر الماء. ويهرك كذلك وصفه للشعوب وعاداتها وطبائعها، وهو ينقلك من أقزام الباكوا إلى الزنوج إلى أكلة لحوم البشر إلى شعب الباهيما فى أوغندا ثم إلى الحبشة ليعرفك بقساوستها ويشركك فى أعيادهم وطقوسهم ويجمعك بمسلميها ويهودها ثم ينتقل بك إلى النوبيين

هذا الوصاف البارع والملاحظ النبيه لا ينتقل بك فى وصفه انتقالا جغرافيا ليطلعك فيه على دقائق شعوب الوادى ونباتاته وحيواناته فقط ، وإنما يطوى بك الزمن القهقرى ليريك بعينيك حياة الفراعنة، ثم يعرض عليك رقا سينمائيا يريك فيه بسرعة الرق السينمائى . تتابع الأحداث فى مصر، فترى الفرس والأغارقة ، وترى إنشاء الإسكندرية — وهو أهم حادث فى تاريخ مصر — وتجتلى طلعة كليوباترة التى عنى المؤلف بسيرتها (وله فيها كتاب مشهور) ، وترى المسيحية تدخل مصر ، وترى الإسلام حتى إذا انتقل بك إلى الفاطميين والمماليك رأيت عجبا ورأيتك فى زفة العرس أو فى موكب الختان أو فى صميم خناقات الأزهريين ، وينتقل بك إلى العهد النابليونى فالعلوى ويجمعك بإسماعيل ويسرد لك قصة قناة السويس وينتهى بك إلى القول الفاصل الذى تردده اليوم فى ثورتك الراهنة على الإنكليز ؛ إنه يقول : « والحق أن العالم بأجمعه استفاد من فتح البرزخ وإن مصر وحدها هى التى خسرت به ... وكان إسماعيل راغبا فى إنشاء القناة من أجل مصر لا أن تكون مصر خادمة للقناة » ثم يهمس فى أذنك : « إن الملك فؤادا قد أخبرنى بأن إسماعيل كان عازما على التخلص من متبوعه الضعيف بأن يعلن فى افتتاح القناة فى خطبة مدوية استقلال مصر وينادى بنفسه ملكا ، ولكن هذا المشروع قد منى بالإخفاق فى الدقيقة الأخيرة لما كان من اعتراض دولة أجنبية »

وإذا ما وصل بك إلى عرابى وحركته أخذ عليه فقدانه حزمه فى الساعة الحاسمة ، ولكنه أنصفه ، ونقل إليك قول الجنرال غوردون الاسكتلاندى فيه : « ومهما يعب به عرابى فإنه سيبعث قرونا فى ذاكرة الشعب الذى لن يقول ثانية : خادمكم الخاضع » وقد يزدهيك قول لودويغ فى الحديث عن ضرب الإسكندرية والغزو البريطانى : « إن الذى لا ريب فيه

هو أن المصريين قاوموا ذلك الغزو الأجنبي في أسابيع بحمية لم يبدأ مثلها في ألوف السنين، كما أنهم أظهروا من العزم والشعور القومي ما لم يظهروا مثله في تاريخهم الطويل » ويرى لودويغ أن يعرفك بكرومر ويحملك على تقدير روحه العملية ونزاهته وعطفه من الزهو وإشماره الفلاح المصري أنه مساو للباشا أمام الله والقانون، ولكنه يحملك كذلك على استنكار رعاية كرومر للامتيازات الأجنبية، ويثير فيك النقمة من سياسة التعليم في عهده، وأخيرا ينقلك إلى الثورة المصرية ويعرفك بسعد زغلول: « ويسأل مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية زغلولا عن المكان الذي يود أن ترد إليه كتائب الإنكليز فيجيبه قائلا: إلى إنكلترا يا سيدي الوزير ... »

أما معاهدة سنة ١٩٣٦ فقد يروقك أن تعلم — وأنت الذي صفقت اليوم لإلغائها — أن لودويغ قال فيها: « إنها اتفاق لا يحقق جميع آمال المصريين لأن الإنكليز سيقضون سنين طويلة لإنشاء بضع ثكن، ولأن الجلاء عن القاهرة لا يؤدي إلى الجلاء عن قناة السويس. ومع ذلك تسير مصر لتستقل هي والسودان، ويتوقف كل شيء في السنوات الآتية القليلة على أحد البلدين الذي يظهر فيه القطب السياسي الأعظم اقتدارا، وسيعرف هذا السياسي كيف ينتفع بالحرب القادمة لحل تلك المسألة »

لقد قدمت للقارئ لودويغ وصافا مبدعا للحيوان والنبات، للشعوب والعادات، للأحداث والأحوال، ولكنني أحب أن أقول إنه وصف السدود — كسد أسوان — وقارن بينها وبين سدود العالم، ووصف الأقنية والري وحقا لا يستطيعه غير مهندس ري قدير ...

وفي أثناء ذلك كله يحرص لودويغ على استيفاء عنصر المقارنة والتشبيه، فيقارن بين محمد علي ونابليون مثلا، ويقارن بين زغلول وعرابي، ويحرص فيما يحرص على عنصر الحكاية الشائقة فيلذ لك أن تقرأ قصة بلقيس وملوك الحبشة، وتروقك حكاية الفرعون أمازيس الذي يعزل القضاة الذين برأوه في فتائه لأنهم صدقوه مثبتا جهلهم ... ويكافئ من حكموا عليه في شبابه لما أبدوه من فطنة ... وبأمر بصب طشت من ذهب كان يغسل فيه رجليه وأن يصنع منه تمثال للرب ... ويبجل الندماء هذا التمثال ويخبرهم أمازيس بأنه صنعه من الطشت الذي كان يبصق فيه ..» وتروقك حكاية النصرانية في مصر ودور القديسين بولس وأنطوان ... وقد يدهشك أن تعلم أن ملك الحبشة عرض الزواج من الملكة فيكتوريا، وأن حربا نشبت على أثر الرفض، وأن تيودور ملك الحبشة لم يلبث حتى انتحر ... وسيأتيك في الكتاب حديث النجاشي منليك في معركة عدوى، وحديث شامبليون الدءوب، وطرائف عن محمد علي في السودان ومقتل ابنه وما كان من أمر محمد المهدي والتعايشي ومقتل فوردون وحملة كتشنر ومقتل الخليفة ونبش قبر المهدي وقصة مارشان وفاشودة

وتروقك كثيرا وأنت تقرأ الكتاب لفتات لودويغ بارعات وتعليقات طريفات وأحكام تشفي الصدور، فإذا تحدث عن الزنوج قال. « إنهم يجهلون أن الرجل في أوربة لا يحق له أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة ولكنه ينال زوج جاره بلا جزاء على حين يمكن الزنجي هنا أن ينكح عدة أزواج ولكن من غير أن يأخذ زوج الجار بلا عقاب »

وحين يكون منبع النيل في بلد آخر وتنافر الفريقان فصرف ساكن المجرى الفوقاني منبع الماء وجهته عن خبث فإن الاشتراع الدولي في أمور الري لا ينفع « إنه اشتراع وهمي كحق دولي »

وإذا تحدث عن الحكم الثنائي في السودان قال: « إن هذا النظام يثير حيرة الجميع لتوزيع الحقوق بين الفريقين توزيعا غير متساو يمكن أن يقال إن هذا قران شرق تقدم به الزوج ما لها وتضع أولادها من غير أن تنال في مقابل ذلك غير حق الحياة، أي ماء النيل، وهي مع ذلك زوجة شرعية تمرق الأحوال العظيمة تحت أقواس نصر، راكبة حصانا يجانب بعلها، مغمورة بالحلي محجبة تماما ... »

ولودويغ إذا ما تحدث عن دخول مصر في الإسلام ووصف ما سبق ذلك من فوضى قال: « ولكن القضاء على تلك الفوضى كان يتطلب أمة جديدة لم يقدر على استعبادها الأشوريون والفرس والمصريون والبطالسة والرومان »، ولودويغ يتحدث عن هوان

المرأة لدى المسلمين وما يرافق ذلك من عادات ، ثم يقول : «ومن المحتمل أن تكون هذه العادات قد عاقت تقدم الإسلام الذي هو أكثر الأديان رجولة ، ومن المحتمل أن يكون هوان المرأة قد أفقده العالم بعد أن كان في قبضته »

وسوف يعجبك قوله في محمد علي وما يراه من خير للبلد في ذبح المماليك وأنه قد قام بأول تجربة لاشتراكية حكومية؛ وأن حكمه نظام استبدادي في صلاح إداري وأنه أول من ضمن حرية الأديان وسلامة جميع طبقات المجتمع وأموالها

وإذا انتقل بك إلى حديث الحشيش وأطرفك بأنبائه وقارن بينه وبين الغازات السامة قال لك كذلك « إن العدالة التي تحكم على متعاطي المخدرات بالسجن سنوات ولا تقضي بحبس تاجر المخدرات التركي غير بضعة أشهر لعدالة عرجاء »

ولعله من أبرز ما لحظه المؤلف تأثير الإقليم في الشعب المصري وقد سمى الشمس والنيل إلهي ذلك الإقليم . والشعب المصري مدين للشمس بالقناعة ومرح ، الحياة ومدين للنيل بروح النظام والطاعة « وهنا قامت دولة جعلت من فرعون إلهاً وجعلت من العمل ضرورة ومن الري فنا ومن العقل والجدل مبدأ . . . وفي هذا البلد يظهر أن الشمس خفضت إرادة التمرد بما فرضه من حساب، ومع ما كان من اختراع هذا الشعب أموراً كبيرة قبل الشعوب الأخرى بألوف السنين ـ حاشا ماتم في وادي الفرات ـ ومع ما كان من عظمة هذا الشعب بعلمه وآثاره التي تنطوي على حسابات بادية حتى في أقدم التماثيل ، كان هذا الشعب العملي ، المقدام ، عاجزاً عن إيجاده لنفسه عالما علويا، فلم يكن العالم المنوع الذي تصوره مما بعد الموت غير صورة من حياتهم في هذه الدنيا ، فقد جعلهم خوفهم من المنصر ، من النيل ، أتقياء ، اجتماعيين، محافظين»

وظاهرة الكتاب الأولى هذا العطف الذي يثيره في نفسك على الفلاح المصري، وذاك الرثاء البليغ لحاله والوصف الأليم لمعايشه وطرز حياته منذ أقدم العصور حتى اليوم ، وتكاد صفحات الكتاب تدعو إلى تحريره وإلى النهوض به

وأما الجهد الذي بذله الأستاذ الجليل عادل زعيتر في التعريب فجبار . وأنت إذا لمست قدرته على إيجاد الأسماء العربية للنبات من النباتات والحيوانات ، رأيت إذا أمعنت النظر في تعريبه للمصطلحات العلمية وفي اشتقاقاته أنمت أن جهده الفردي هو جهد مجمع علمي كامل الأدوات ؛ وأيقنت أنه في وفرة إنتاجه السنوي وفي صحة لغته وقوة بيانه مؤسسة قائمة بذاتها . وما تقول في من أتحف العربية بعشرين مجلداً ضخما من نفائس القرائح العالمية في بيان عربي ناصع وأسلوب متين ؟

وقارئ كتاب النيل وغيره من معربات عادل زعيتر يدرك أنه الرجل الذي أعلى راية اللغة العربية وذلل أمامها كل صعب وأخضع لشوكتها أرق اللغات؛ وبرهن على أن اللغة التي وسعت آي الله ونزل بها كتابه العظيم لن تضيق عن كتاب في هذه الدنيا ما توفر على التعريب عالم نابغ ، دءوب ، ضليع كعادل زعيتر

هذا وقد تطغى على الأستاذ زعيتر أحيانا الناحية اللغوية فتظن أن الكتاب كتاب لغة ، فتراه يطعم اللغة مقدارا من الكلمات الغير المألوفة، وتراه كثيرا ما يشكل الكلمات وكثيرا ما يؤثر غير الشائع على الشائع ، وقد يكون هذا مأخذاً عليه في رأي البعض ولا سيما في كتب تكون في أصلها غامضة الفكر والتعبير ككتب لودويج . وقد يكون في جنوحه إلى ذلك مقدرا في رأي البعض الآخر من رواد الفوائد اللغوية

ولعل من مبتكرات المعرب الموفقة اجتنابه تكرار النسبة في الكلمات المعربة خلافا لما اعتمده كتابنا فهو يقول : دبلمي وكلاسي وميكاني وبلجي.. بدلا من دبلماسي وكلاسيكي وميكانيكي وبلجيكي.. والمترجم حين يقدم لكتابه يرجو أن يكون قد قدم إلى إخوانه أبناء النيل هدية صغيرة ليعرب لهم بها عن مودته لوادي النيل ، البلد الكريم الذي أحبه كثيرا

وفي الحق أن نقول للأستاذ زعيتر : إنها هدية كبيرة ، ومن الحق أن نعيد القول :

هذا كتاب .. كفى به تعريفا أن يكون من النيل وأن يؤلفه أميل لودويغ وأن يعربه عادل زعيتر

القاهرة

مطاع